تعريف بالفن القصصي

النهضة الحديثة . أسبابها وأثرها في القصة:

النهضة الحديثة:

في مستهل القرن التاسع عشر أخذت مصر والبلاد العربية، تستيقظ و تتنبه، و تتدارك ما فات لها في القرون السابقة، التي كانت معقدة ومنمقة في جميع الميادين العلمية والفنية والسياسية والاقتصادية إذ كانت الحكومات الإسلامية لاتعتني بأمور المسلمين البناءة وتشييد المباني الفنية والعلمية.

فإن النهضة الحديثة التي شاهدتها مصر في بداية القرن التاسع عشر، كانت نهضة علمية فنية، وفتحت أمام عيونها أبواب العالم الذي لم تطلع عليه منذ قرون، واتسع نطاق علاقتها بالأمم الغربية المتنوعة ومدت يد الاستعانة والاستفادة إلى الغرب في مجال العلم والمخترعات الجديدة، والفنون الجميلة وأخص منها بالذكر الأدب العربي، فكانت مصر أول ممن ازداد بالغرب صلة وبأهله تعرفاً، وبحضارته وثقافته ولوعاً، ولم تنس ماضيها وتراثها المجيد من الحضارة والثقافة، فاستقت من المنابع العلمية و الفنية القديمة، ولكن بكأس جديد الطراز وحديث التخطيط ، فالمواد العلمية والفنية، هي التي كنا نعهدها في العصور السابقة مثل العصر الأموي، و العصر العباسي الأول والثاني، وعصر المماليك، وأخيراً في العصر العثماني، فأحبت ما ورثته عن العرب القديم من آداب ضخمة وتراث مجيد ، و إلى جانب ذلك جعلت تتناول و تأخذ من الجديد و تمزج بين الثقافتين.

فإن هذه النهضة الحديثة التي أعقبت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م ، حفرت البلاد العربية فيما تشتمل مصر و الشام ولبنان وغيرهما من البلدان، على أن تفرك عيونها التي طالت هجعتها، و تساير الموكب الذي تسايره الأمم المعاصرة المتطورة في جميع مناحيها وقطاع حياتها.

يصور عمر الدسوقي كل هذا بقلمه البليغ قائلاً: "هبت مصر من سباتها العميق فزعة مذعورة حيث دوت في آفاقها مدافع نابليون عام ١٧٩٨م، وأخذت تقلب الطرف دهشة في هذه الجيوش العجيبة والوجوه الغريبة ..... اصطحب نابليون معه كل عدد الاستعمار والاستغلال

والايقاظ، وكانت دهشة المصريين جد عظيمة مما رأوا من مظاهر هذه المدنية، إذا أنشأ نابليون مسرحاً للتمثيل، و مدارس لأولاد الفرنسيين والجرائد والمصانع ومعملاً للورق".[1]

على كل حال مهما كانت الحملة، و تركت من آثارها على البلدان العربية، لا يوجد شك في أن هذه الحملة هي التي أزاحت الغطاء عن أعين الناس، و أقنعتهم بأنهم يعيشون في عالم آخر، منقطعين عن جميع ما يحدث في العالم، وغير آخذين من الكماليات والمخترعات، غير سالكين الطريق الذي كانت تسلك الدنيا للوصول إلى قصبها، فكانت هذه الحملة على حد تعبير شوقي ضيف نقطة الانطلاق، و بداية تاريخ جديد ، بالنسبة لأهل مصر بوجه خاص بل أخص ، و بالبلاد العربية الأخرى بوجه عام.

أسباب النهضة الحديثة:

هناك أسباب عديدة ، وبواعث مختلفة لهذه النهضة التي أتحدث عنها الآن، وهي الأسباب التي قد هيأت البلاد العربية أن تتدارك ما فاتها بسرعة مذهلة، فأذكر بعض أهم تلك الأسباب:

السبب الأول: هو ما قام به نابليون بونابرت من حملة على مصر سنة ١٧٩٨م، فإن هذه الحملة بغضّ النظر عن مساويها ومقابحها، كانت حافزة كبيرة على بعث الأمم العربية، ونهضها من جديد، وجعلت تنفض عنها الغبار الذي تراكم عليها منذ قرون و أحقاب، و إن الأدب العربي الذي كان متسربلا بلباس الصنعة فالتصنع، فالتنميق والتخذلق، جعل يهجر هذا الأسلوب المعقد القديم، و أخذ يتغير ويتبدل شيئاً فشيئاً على أيدي أعلام الأدب الحديث. فيقول أحمد حسن الزيات عن هذا:

"مازال الزمن الجائر ينقص من أطراف الرقعة العربية حتى قصرها في أواخر القرن الثامن عشر على العراق العربي، والشام و بلاد مصر والسودان و المغرب، وفي تلك البلاد بقي النفس الأخير من أنفاس اللغة العربية يتردد في وناء و ضعف، حتى أذن الله لشمس الحضارة أن تشرق ثانية على ربوع النيل ، فارفض عنها الوهن، وسرت فيها الحياة، ففي مصر كان ملاذها وغياثها، وفي مصر كان بقاءها وانبعاثها".

الثاني:- إن الاتصال الذي قام به الشرق المتقهقر بالغرب الراقي المتطور المتحضر في القرن التاسع عشر، هو أيضاً قد دفع البلاد أن تستيقظ و تفرك عيونها ، و إن هذا الاتصال المباشر بين الشرق والغرب كان عن طرق كثيرة، إن البعثات المصرية التي كانت تفد البلاد الغربية و تنهل من موردها، وتستقي من منابعها الثرة، و تراها رأي العين، وتتلقى العلم و الفن على أساتذة متخصصين ، قد

---

[1] - الدكتور عمر الدسوقي: في الأدب الحديث، ص١٧– ١٨.

كانت من أهم بواعث الاتصال بين الحضارتين وملأ الهوة بين الثقافتين، لأن هذه البعثات لم تكن تفد على الغرب فقط لتلقي العلوم والفنون، بل إنها جاءت هنا إلى الغرب كي تطلع على منهج حياتها وترى ملامح عيشها ، و تعود و تنقل صوراً جديدة من عاداتها و تقاليدها، وأفكارها وآرائها ، لم تكن توجد في الشرق لاسيما في ذلك العصر، فإذا نتصفح صفحات تلك العصر و لاسيما لأهالي البعثات لاتضح لنا جليا، كيف كان هؤلاء المهرة ينقلون آدابها و أفكارها في أسلوب مرسل شفاف ، من النثر والشعر، وجعل الأدب يتخذ لوناً جديداً مميزاً عن العصور السابقة ، يطبعه بطابع خاص ، فعن البعثات يقول عمر الدسوقي:

كان لهذه البعثات أثر بالغ في تقدم مصر ونهضتها، و إرسال نورالعلم وافقاً قوياً في ربوعها، كما كان لها أعظم الفضل في إحياء اللغة، وجعلها مسايرة للعلم الحديث بما ترجم أعضاؤها من كتب و ما أدخلوه من مصطلحات وما ألفوه في شتى نواحي العلم.

إن المدارس الجديدة والجامعات الحديثة قد لعبت أيضاً دوراً هاماً بارزاً في ترقية الفكر العربي وتطوير الفكر العربي.

والأمر المهم أن محمد علي باشا حين رأى أن الأزهر و ما يعلم فيها من علوم الدين واللسان لاتغني من علوم الحرب والطب و الرياضة شيئاً، فمن هنا اتجه إلى إنشاء المدارس العلمية المختلفة، و لم يقف على هذا بل إنه قد جزأ المدارس إلى أقسام من الابتدائية والتجهيزية والخاصة، وعلى الطريقة السابقة كانت بين هذه المدارس الجديدة و الجامعات الحديثة و بين مدارس أوربا علاقة وصلات، و تبادل البعوث فكانت هذه المدارس على تعبير حسن الزيات من أقوى المدارس الخاصة أثراً في النهضة العلمية والأدبية.

وهنا مدرسة أخرى بجانب هذه المدارس و الأزهر و هي الجامعة المصرية ، فلهذه الجامعة يد طولى لاتستهان بها في سياق ذكر أسباب النهضة الحديثة لأن هذه الجامعة كانت قبل كل شئ تجري على المنهج الحديث و ترمي إلى انتشال الأمة المصرية من المأزق و الجهالة العمياء و توجيهها إلى الآفاق الواسعة الرحبة ، و أضيف إلى ذلك أن المحتلين كانوا يريدون أن يحصروا أهل مصر في دائرة ضيقة ، ليس لهم طمح و أمنية ، و لا وزن ولا قيمة، فأرادت هذه الجامعة أن تصد هذا السيل العرم و أن تعاون المصريين في تقدمهم إلى الأمام ، ففي سنة ١٩٠٨م تم افتتاح هذه الجامعة المصرية ، و قد قرر الأمير أحمد فؤاد رئيساً لهذه الجامعة فقد كان يلقي محاضرات قيمة حول شتى الموضوعات من الأدب و الفلسفة في الجامعة أمام الطلاب والمؤظفين.

إن الصحافة التي هي قد سادت العالم كله واستغرقت البلاد كلها، يعود تاريخها إلى النهضة الحديثة، لأن الصحافة قد كان لها دور مهم في القيام بالنهضة الحديثة و النهوض بالشعب في عقليته ولغته وعلمه والإصلاح الاجتماعي، وأكبر سبب لذلك أن الصحافة وأسلوبها كان قد تحرر كلياً عن

البديع والمحسنات اللفظية و الزخرف الكلامي الذي كان يطرأه من قبل في عصر الانحطاط، وذلك لسبب بسيط أن الصحف لا تحصر في رحاب الدولة وأصحاب الطبقة العليا من الأمة، بل أن الصحف هي بمثابة مدارس متجولة في البلدان ليست محصورة بين جدران، ولها علاقة وثيقة مباشرة بعامة الناس، لأن الصحافة إذا كان أسلوبها سهلا ميسوراً يستطيع الجمهور أن يطلع عليها ويقرأها، فهذا العمل يؤدي إلى انتشار الصحافة و الأدب، فتوسع دائرة التعليم والتربية، وتهذب عقول الجماهير، وتنهض الهمم القاعدة، وتقرب الأمم المتباعدة.

كان للسوريين مساهمات متقدمة في مجال الصحافة ونشرها، لأنهم قد سبقوا في نشر الصحافة وإصدارها على النطاق الإقليمي والعالمي، فقد أصدر السوريون "مرآة الأحوال" بحلب سنة ١٨٥٥م ، ثم أصدرت " حديقة الأخبار" عام ١٨٥٨م ، و ظلت تصدر حتى سنة ١٩٠٩م ، ثم خطت الصحافة خطوة واسعة في سبيل التقدم حينما صدر " الجوائب " تحت رئاسة أحمد فارس الشدياق بالآستانة عام ١٨٦٠م ، و كان لهذه الصحافة أسلوب خاص رشيق جداً افتن الناس بها.

على كل قد أثرت الصحافة تأثيراً لا بأس بها في مجال النهضة الحديثة، فإنها – بلاشك – قد جمعت بين السياسة والأدب، وربطت الأمة العليا بعامة الناس ، و الحكومة بالجماهير ، و أقربت البعيد، وجعلت العالم كله كفناء واسع متحد.

وهنا عامل آخر في النهضة الحديثة ، وهي الطباعة التي اخترعها يوحان جوتنمرج.

لمّا شنّ نابليون حملة على مصر، فقد جاء معه بمطبعة ، و كان يستغلها في طلع المنشورات باللغة العربية ، بالإضافة إلى ما كانت تقوم بطبع الصحف و المجلات، من هنا اطلع أهل مصر على هذا النوع الجديد الذي لم يكن لهم عهد به من قبل ، فلمّا غادر نابليون مصر ذهب بمطبعته.

فاقتداء بذلك أنشأ أهل مصر مطبعة لنشر المخطوطات العربية و الكتب العربية القديمة من العصر العباسي وما قبل العصر العباسي.

ولمّا احتل إسماعيل باشا عرش مصر، و قد كان له إلمام واسع بالأدب، فاتجه إلى هذا الجانب ، فبتوجيهه نهضت الطباعة نهضة واسعة، و كانت أول مطبعة مصرية مطبعة بولاق، و كانت الحكومة تعتني بالطباعة كثيراً، و إلى جانب مطبعة بولاق كان هنا مطابع أخرى في مصر كلها كانت تقوم بطبع الكتب العربية القديمة، و هذا العمل قد وفر كتبا وافرة للناس فاطلع الناس على الأساليب المختلفة، من الضعر و النثر، فإن هذا الاطلاع على الكتب القديمة أيضاً قد نهض باللغة والأدب و شئون التعليم.

ويقول شوقي ضيف عن هذه المطابع و تأثيرها: " كان لذلك تأثير واسع في حياتنا الأدبية، فإن أدباءنا اطلعوا من هذه الكتب و الآثار القديمة على مثل ونماذج في الأدب العربي، لم يكونوا يعرفونها، إذا كان كل ما يعرفونه من ذلك الآثار القريبة، منهم المملوءة بالسجع وألوان البديع، فلمّا طبعت لهم

" كليلة و دمنة " لابن المقفع، و كتابات الجاحظ وابن خلدون وغيرهم ، كما طبعت لهم دواوين أبي تمام و أبي نواس والمتنبي، وأضرابهم رأوا أساليب جديدة، أما في النثر فرأوا أساليب مرسلة خالية من التكلف، والصناعة اللفظية، و أما في الشعر فرأوا نماذج بسيطة ليس فيها عقد البديع وكلفة.

وعلاوة على ما سبق ، أرى أن للمجامع العلمية أيضاً دوراً في النهضة الحديثة الأدبية.[2]

أثرها في القصة:

قد أثرت النهضة الحديثة على القصة كثيراً مع أن القصة ليست هي وليدة العصر الحاضر بمعنى الكلمة، لأن القصة - مهما كانت صورتها- قد أجدها في العصور السابقة، لكن لما دخل فيها بعض التحسينات جعلتها تنهض من جديد كأنما هي ولدت في العصر الحاضر، و إذا كانت النهضة الحديثة قد غيرت مجرى الأدب العربي وأثرت على الأسلوب الأدبي فكان للقصة العربية حظ وافر منه، ولاسيما إذا كانت القصة على حد تعبير بعض الأدباء " أقرب فنون الأدب إلى الحياة ".

إن الأدباء العرب قد اقتبسوا مما اقتبسوا من آداب الغرب القصة حديثة الطراز جديدة الأسلوب، لأن النهضة الحديثة لمّا جاءت فقد اتصل الشرق اتصالاً شديداً مباشراً بالغرب عن طريق البعثات والاتصالات ، فتأثروا بحياة العرب وأدبهم، فأخذوا منها القصة الافرنجية بقواعدها ومناهجها وموضوعاتها.

والفضل في السبق إلى القصة يرجع إلى اللبنانيين لأنهم كانوا قد سبقوا إلى مخالطة الأوربيين والتعايش معهم، فلمّا وجد المصريون المواد القصصية الخام، عالجوها علاج المحاكاة والنقل، فتقدموا في هذا الفن إلى الأمام خطوة فخطوة، أولاً نهض الأدباء فأخذوا طائفة من القصص و الأقاصيص الغربية ونقلوها إلى اللغة العربية، ففي نقل القصة الغربية إلى اللغة العربية اختار الأدباء منهجين مختلفين، فبعضهم ذهبوا إلى الاقتباس بفكرة القصة، ولم يراعوا في الترجمة الأصل، حذفوا منها ما حذفوا، و أضافوا إليها ما شاءوا، فمن هذه الجماعة يلمع اسم نجيب الحداد و مصطفى لطفي المنفلوطي، وحافظ إبراهيم، فقد ترجموا على الترتيب "غصن البان" و "الفضيلة" و "البؤساء".

وكانت هنا طائفة أخرى من المترجمين كانوا شديدي الدقة و المطابقة بالأصل، كما نرى الدكتور أحمد زكي في "مرغريت".

ثم بعد هذه المرحلة جاءت هنا طائفة أخرى مستقلة في ذاتها في إنشاء القصة العربية، فكانوا يكتبون القصة عن مواهبهم بعيدين عن الترجمة والنقل.

وهنا أمر مهم لابد من ذكره، هو أن المترجمين للقصة، كانوا قد اختاروا أساليب مختلفة في نقل القصص الغربية إلى اللغة العربية، و في مستهل النهضة و الاتصال بأوربا كان الأدباء يتقلدون الأسلوب المسجع إلى حد ، فإذا قد أرى أن رفاعة الطهطاوي وهو رائد حركة الترجمة، قد نقل القصة إلى أسلوب السجع و البديع، ولم يتقيد بالأصل الذي ترجمه، فهو على هذا النهج قد مصروا القصة.

ولكن لمّا نضج فكر أهل مصر من الأدباء ، و اشتد احتكاكه بأوربا واحتدمت حركة النقل والبعثة، نرى أن الأدباء قد تحرروا من الأسلوب القديم البتة، واختاروا الأسلوب المرسل كليلاً في كتابتهم، كما هو شأن محمد حسين في روايته "زينب "، يقول شوقي ضيف عن ذلك:

"على أننا لانكاد نتقدم في هذا القرن حتى يستجيب بعض أدبائنا إلى هذا الفن ويحاولون أن يحدثوا فيه نماذج لهم ، وكانت هنا محاولتان: محاولة في إطار المقامة هي "حديث عيسى بن هشام"، و محاولة جديدة خالصة هي محاولة "زينب" لمحمد حسين هيكل.